شاعر الغزل
عمر بن أبي ربيعة

وأنها حلفتْ بالله جاهدةً ... وما أهلَّ له الحُجَّاجُ واعتمروا
ماوافق النفسَ من شيءٍ تُسَرُّ بهِ ... وأعجب العينَ ؛ إلا فوقه عُمَرُ

هكذا وصف أبو الخطاب عُمرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة نفسه ، وهكذا عاش شاعر قريش — الذى انتزع لها قَصَب السبق فى الشعر على سائر العرب — واسطة العقد فى كل مجلس ، وأحبُّ سمير إلى كل معشر ؛ وأمضى حياته فى لهو ولعب ، وكان له منذ وُلد من نشأته وعصره . فلقد وُلد ليلة ٢٦ ذى الحجة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) ، ليلة مقتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، فسمّوه باسمه ، وكنّوه بكُنيته ؛ وعاصر شبابه شباب دولة بنى أمية التى استحدثت الملكية فى الإسلام ، وفاضت خزائنها بأموال الفيء ، واتسعت فتوحاتها حتى بلغت المحيطين شرقاً وغرباً ، وحبست الصحابة والأشراف فى المدينة ومكة ، وأغدقت عليهم الأموال اتقاء خروجهم ، وما قد يصحبه من فتنة .

وعُمر ؛ قد ورث عن أبيه أموالا طائلة وتجارة أعانته على حياته اللاهية وحفظت عليه مظاهر الأبهة والجاه ، حتى إنه لما تاب عن قول الشعر كان يعتق بكل بيت يقوله عبداً أو أَمَةً إلى أن وافاه أجَلُه عن سبعين عاماً ، فى أرجح الأقوال ، شاهَدَ خلالها ألواناً من الفتن والحروب التى ثارت فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل كانت هى من أشد الفتن والثورات فلم يحفل بها ولم يتأثر ، بل عاش فى عالمه الخاص لا يسمع بتلك المعارك الدموية التى تثور فى كل يوم حتى قتلت زوجة المختار الأنصارية الجميلة التى أَبَت أن تذمَّ زوجها فقال :

إنَّ من أعظم الكبائر عندى قَتْلَ حسناء غادةٍ عُطبولِ
قُتلتْ باطلاً على غير ذنبٍ إن لله درّها من قتيلِ
كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى المحْصنات جرُّ الذيولِ

أجل ! اهتزت مشاعر عمر للعدوان على الجمال ، فصاح يلوم المعتدين ويؤنبهم على فعلتهم التى تخالف العرف والخُلق العربى الكريم .

ورغم أن عُمر قد تخصص فى ناحية من نواحى الشعر كانت بعيدة كل البعد عن أحداث عصره إلا أنها أكسبته شهرة واسعة ورفعت مكانة قريش حتى قال يعقوب بن إسحاق : « كانت العرب تقرُّ لقريش بالتقدم فى كل شىء عليها ، إلا فى الشعر فإنها كانت لا تقرُّ لها به ، حتى كان عمر بن أبى ربيعة ، فأقرّت لها الشعراء بالشعر ولم تنازعها شيئاً » .

ولقد اشتهر عمر بإجادة الوصف بأنواعه المختلفة ، ولو أن صوره الوصفية كثيراً ما جاءت ضمن قصائده الغَزَلية كقوله يصف نفسه وقد أقبل من سفره :

فقالت : نعم لا شَكَّ غيَّر لونَهُ سُرَى الليل يطوى نصَّهُ والتهجُّرُ
رأت رَجُلًا ، أما إذا الشمسُ عارضَتْ فيضْحَى ، وأما بالعَشِيّ فَيَخْصَرُ
أخا سَفَرٍ ، جوّابَ أرضٍ تقاذفَتْ به فَلَوَاتٌ فهو أشْعَثُ أغْبَرُ

أما وصف الجمال فلا شك فى أنه كان رسالته الأولى . فاستمع إليه يصف هذه الغادة البيضاء الممتلئة الذراعين والساقين :

خَدَلَجَةً[1] إذا انصرفَتْ رأيت وشاحها قَلِقَا
وساقاً تملأُ الخَلخَا لَ فيه تراهُ مختنِقَا

كما كان لابن أبى ربيعة خيال واسع ، وروح كبيرة يضفى منها على صوره ،

---

(١) خدلجة : ممتلئة الذراعين والساقين .

فيحيلها نابضة بالحياة والحركة ، حتى الجماد يتحدث إليه ، ويسمع منه ، وهو يشكو ويعتب :

سائلَا الرَّبْعَ بالبُلَىٰ وقُولَا هجت شوقاً لىَ الغَدَاةَ طَوِيلَا
أين حىٌّ حَلُوك إذ أنتَ محفو ف بهم آهلٌ أراك جميلا ؟
قال : ساروا فأمعنوا واستقلوا وبرغمى ولو وجدت سبيلا
سئمونا وما سئمنا جواراً وأحبّـوا دمائةً وسهولا

أليس فى هذه الأسطر تعبيراً قوياً عن رقة مشاعر عمر ؟ إن شعوره مرهف حتى إنه ليذكر جياده فى شعره مراراً مُشفقاً عليها ، عاطفاً على آلامها كقوله وقد خرج يطلب ابنته أَمَة الواحد :

لم تدرِ وليغفرْ لها ربُّها ما جشَّمَتْنا أَمَةُ الواحدِ
جشّمتِ الهـولَ براذيننَا نسأل عن بيت أبى خالدِ

وإن أفعاله تطابق أقواله فهو قد دفع أربعمائة دينار مهر عروس . . إدفعها عن حبيبها الفقير حتى يستطيع الزواج منها لما شكا إليه حبه فرقّ قلبه لشكاته .

بل إنه رغم عبثه واستهتاره شديد التأثر إلى درجة بعيدة ، سريع الانفعال حتى ليقول فى وداع إحدى صديقاته :

كدتُ يوم الرحيل أقضى حياتى ليتنى متُّ قبل يوم الرحيلِ
لا أطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعى يسيل كلَّ مسيلِ

لكنه كذلك كان سريع النسيان ، غير عميق العاطفة لهذا الحزن ، لا يتلف عليه حياته . وهذه العاطفة لا تطيح بوجوده كما فعلت بالمجنون ، وقد قال معترفاً فى إحدى قصصه على لسان صاحبته :

أهذا سِحْرُكَ النسوا نَ ، قد خبَّرْنَنِي خَبَرَكْ
وقُلْنَ إذا قضى وطراً وأدرك حاجةً ، هَجَرَكْ

وجميع أخبار عمر تشير إلى أنه كان محترفاً للغَزَل ، مغرماً بمتابعة النساء بغية اللهو وصرف الوقت والسمر . وقد قال الدكتور طه حسين : « كان كل شيء فى حياة عمر وسيلة إلى الاتصال بالمرأة وذِكرها والتحدث إليها ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن عمر من هذه الناحية كان أعظم سمير عرفته المرأة فى تاريخ العرب . ولسنا نعرف رجلا من رجال العرب على الإطلاق روى له الرواة قصصاً وأخباراً لعب فيها الحديث والسمر هذا الدور الذى لعباه فى أخبار عمر ، ولسنا نعرف شعراً لشاعر عربى افتنَّ فيه صاحبه بوصفه لحديثه للمرأة وحديثها إليه و إلى رفيقاتها افتنان عمر بوصفه لهذه الأمور فى شعره » .

و يؤيد هذا الرأى ما جاء فى الأغانى من أن عمر كان يقدم فيعتمر فى ذى القعدة ، و يحل و يلبس تلك الحلل والوشى ، و يركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القُطوع[1] والديباج ، و يُسْبِل لِمَّتَه ، و يلقى العراقيات فيما بينه و بين «ذات عِرْق» مُخْرِمات ، و يتلقى المدنيات إلى « مَرّ » ، و يتلقى الشاميات إلى « الكُدَيْد » و يعترف عمر نفسه فى قوله :

صرمتُ وواصلتُ حتى عرفـ ـت أين المصادرُ والموردُ ؟
وجرَّبت من ذاك حتى عرفـ ـت ما أتوقَّى وما أحمدُ

وهو يعرض غزله فى صور مكشوفة أقرب إلى الفكاهة والمزاح كقوله فى إحدى قصائده :

ولمّا ٱلتقينا وٱطمأنت بنا النَّوى وغُيِّب عنا من نحاف ونشفقُ
فَقُمْنَ لكى يحلينا فتَرَقْرَقَتْ مدامع عينيها وظلَّت تَدَفَّقُ

---

(١) القطوع : طنافس .

وقالت : أما ترحمنني ؟ لا تدعنني لدى غزل جمٍّ الصبابة يخرق[1]
فقلن أسكتي عنا فلست مطاعة وخلّك عنا ـ فاعلمي ـ بك أرفقُ

و بعض شعره يوحي بأنه فسق رغم أدعائه الفقه ، وتواتر كثير من الأخبار على أنه عفّ الحب كقوله :

ثم أبدَتْ إذ سلبتُ الـ ـمرْطَ مُبْيَضًّا هَضِيماَ
فَلَهَوْنَا الليـلَ حـتى هَجَمَ الصبحُ هُجوما
قُلْنَ قـد نادَى المُنادى و بدا الصبحُ فقُوماَ
قُمْنَ يزجين غزالاً فاتِرَ الطَّرفِ رَخِـيما
ولقـد قَضَّيْتُ حاجاَ تى ولافيتُ النعـيما

أم تراها كانت أوهام شاعر وأحلاماً يزكيها الحرمان ؟ لكن الشاعر رغم كل شيء كان له رأى فى الحب كعاطفة وشعور إنسانى من أرقى المشاعر التى بدونها لا يصح أن يسمى الشخص إنساناً ، فهو يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكنْ حجراً من يابس الصخر جَلْمَدَا

كما نشتمُّ من بعض قصائده جدّية العاطفة وصدقها كقوله :

يا خليلىَّ من مَلَامِ دعانى وأِلمَّا الغـداةَ بالأظعانِ
لا تلوماَ فى آلِ زينب إن الـ ـقَلْبَ رَهْنٌ بآل زينب عانِ
ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو قف منها بالخَيْف إلّا شجانى
لم تدع للنساء عنـدى حظًّا غـير ما قلت مازحاً بلِسانى
هى أهل الصفاء والودّ منى وإليهـا الهَوَى فلا تَعْذُلانى

ولعله شغف بزينب هذه ، فأطال ذكرها فى شعره ، وشرح لهفته عليها وتوكيد

---

(١) يحمق .

براءة حبه لها وصدقه ، حتى وصفها بأنها بعض نفسه التى بين جنبيه :

لا مُطاعٌ فى آل زينب فارجعْ ... أو تـكلَّمْ حتى يملَّ اللسانُ
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ ... ـبر عن بعض نفسه الإنسانُ ؟
ولقد أشهدُ المحدَّث[1] عند الـ ... ـقَصْرِ فيه تعفُّف وبيانُ

وإنه ليتفجع تفجُّع مكلوم لفراقها :

أَلْمِمْ بزينب إنّ البين قد أفِدَا ... قَلَّ الثواء لئن كان الرحيلُ غَدَا

وإن عمر يجيد التعبير عن مشاعر الحب فى قلبه فى لحظات الألم وساعات الفراق أكثر من ساعات اللهو . . تأمل معى هذين البيتين يصف فيهما هلعه لساعة الفراق ، وكيف يستنجد بصبره لتلك اللحظة المريرة .

زعموا بأن البينَ بعـد غدٍ ... فالقلبُ مما أزمعوا يَجِفُ
تشكو وأشكو مما أجدَّ بنا ... كلٌّ لوَشْكِ البين[2] يعترفُ

ولقد امتاز عصر ابن أبى ربيعة بنهضة فنية فى الغناء والموسيقى لم يُعرف لها مثيل من قبل عند العرب ، وانتشر المغنون فى الحجاز لا سيما من جوارى الفىْ ، وعرفت مجالس الطرب والغناء لا يكمل إلا بالشعر . لذا كثرت ملازمة المغنين للشعراء ، كما أحبَّ الشعراء أن يطرب بشعرهم المغنى بدلا من أن يسير الحادى به ولقد أقبل المغنُّون على شعر عُمر لما امتاز به من سهولة التعبير ودقة الوصف كقصيدته فى فاطمة بنت عبد الملك التى قال فيها :

ضاقَ الغداةَ بحاجتى صدرى ... ويئستُ بعـد تقارُبِ الأمرِ
وذكرت فاطمة التى عُلِّقتها ... عَرَضاً فيا لحوادث الدهرِ
وكأن فاها عنـد رقدتها ... تجرى عليـه سلافة الخمرِ

---

(١) مكان التحدث .
(٢) يصطبر .

فَسَبَتْ فؤادى إذ عَرَضْتُ لها يوم الرحيلِ بساحة القصرِ
حتى لقد قالوا وما كذبوا أُجُنِنْتَ أم بك داخل السحرِ ؟

* * *

ولقد امتاز ابن أبى ربيعة إلى جانب ذلك بملكة قصصية وقوة ملاحظة شديدة أعانتاه على دقة الوصف وذكر حوادث قصصه مفصّلة كأحسن ما يكون كاتب قصة . وقصص عمر متعددة تملأ أجزاء ديوانه سنخصها بحديث خاص .

القصص

فى

ديوان ابن أبى ربيعة

القصص من أحب ألوان الفنون إلى الناس ومن أقدمها لما فى طبيعة البَشَر من حب اُستطلاع أخبار بعضهم بعضاً ، ولقد ظهر القصص أول ما ظهر شعراً ؛ لأن الشعر كان أسبق للوجود من النثر ، فسجّله المصريون القدماء فى معابدهم وطقوسهم الدينية ، ثم اليونانيون فى ملاحمهم الشعرية كالإلياذة والأوديسه ، كما كان هناك بين العرب قوم تخصصوا فى حفظ أخبار أحياء العرب وأنسابهم . لكن التاريخ لم يحفظ لنا ملاحم من الشعر العربى كتلك التى خلفها الإغريق ، إلا أن الشعر الذى وصلنا فيه الكثير من فنون القصة . ولقد اشتهر عمر بن أبى ربيعة بأنه أعظم سمير عرفته المرأة العربية وأحبّت حديثه وسَمَره ، ولا شك أن أحب شىء إلى قلب المرأة هو أن تسمع أخبار أعدائها وأصدقائها ، ولا شك عندى فى أن عمر قد استطاع أن يُرضى هذه الناحية فى قلب صديقاته بما حَبَاه الله من مَلَكة قصصية وقوة ملاحظة أعانتاه على دقة الوصف وتفصيله . وإذا كانت الكتب لم تحفظ لنا شيئاً يُذكر من أحاديث عُمر كما أن ديوانه قد فَقَد الكثير من شعره فإن ما تبقّى من شعر عُمر فيه الكفاية لإثبات صحة ما ذهبنا إليه .

فاستمع إليه يصف فى دقة كأحسن ما يكون كاتب قصة كيف تسلّل ذات ليلة إلى مكان صاحبته الذى بالغوا فى إخفائه وأحاطوه بالقباب المتشابهة والحرّاس الأشداء الذين غلبهم النوم على أمرهم بعد طول سَمَر وسهر :

يا خليلىّ شَفَّنى الذِّكرُ وحمول الحىّ إذْ صَدَرُوا

ضربوا حصر القباب لها وأديرَتْ حولها الحجَرُ
سلكوا شعب النقاب بها زُمَرًا تحتثها زُمَرُ
وطرقت الحيَّ مكتتما ومعى عضبٌ[1] به أثَرُ
وأخ لم أخش نَبْوَتَهُ بنواحى أمرهم خبرُ
فإذا ريمٌ على فُرُشٍ فى حجال[2] الخزّ مختدرُ
حوله الأحراس ترقُبُهُ نُوَّمٌ من طول ما سهروا
شَبَهُ القَتْلَى وما قتلوا ذاك إلا أنهم سمروا

والحوار السهل الممتع الذى ينساب كالجدول الرقراق فى تسلسل و نظام يعرض القصة فى يسر ولطف شائع كثير فى شعر عمر ، وهو يجريه أحيانا بينه و بين صاحبته فقط ، أو بين جماعات من الأصدقاء ، أو بين النساء و بينه ساعات اللهو والسمر .

لنستمع هذه القصة بين عمر وزينب التى شجّعته على مغازلتها ، ثم تظاهرت بالصد ، لكنها عادت أخيرًا لعُمر :

تَصَابَى القلبُ وادَّكَرَا صِبَاهُ ولم يكن ظَهَرَا
لزينب إذ تُجِدُّ لنا صفاءً لم يكن كَدِرا
أليست بالتى قالت لمولاةٍ لها ظهرا
أشيرى بالسلام له إذا هو نحونا خَطَرَا ؟
لقد أرسلتُ جاريتى وقلت لها : خُذى حَذَرا
وقولى فى ملاطفةٍ لزينب نوِّلى عُمَرا
فهزَّت رأسها عجباً وقالت : مَنْ بِذَا أَمَرا ؟
أهذا سِحْرُك النسوا ن ؟ قد خبَّرَنِى الخبَرا

---

(١) سيف .

(٢) جمع حجلة : أى قبة .

وهذه قصة أخرى من غانية شغف بها فاحتال برسول إليها ، ولقيها فى سرب من لِدَاتها اللاتى تفرقن عنهما لِمَا أدركنه من شغف كل منهما بصاحبه . وفى هذه القصة يُجرى عمرُ الحوار بينه و بين صاحبته و بينها و بينهن ، ثم حديث صامت بينه و بينهن جميعاً ، فلنصغ إليه :

جَرَى ناصحٌ بالوُدّ بينى و بينها ... فقرّبنى يوم الحِصَابِ إلى قَتْلِى [1]
فطارت بحَدّ من فؤادى وقارنتْ ... قرينتُها حبلَ الصفاء إلى حبلى
فلما تواقَفْنا عرفتُ الذى بها ... كمثل الذى بى حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ
فقُلْنَ لها هذا عِشاءً وأهلُنا ... قريبٌ ألمَّا تسأمى مركب البَغْلِ ؟
فقالت : فماشئتنَّ ؟ قُلْنَ لها : أنزلى ... فَلَلأَرضُ خيرٌ من وقوفٍ على رَحْلِ
نجومٌ دَرَارِىٌّ تكنفْنَ صورةً ... من البَدْرِ وافَتْ غَيْرَ هُوجٍ ولا عُجْلِ
فسلَّمْتُ واستأنست خِيفةَ أن يَرَى ... عدوٌّ مُقَامى أو يرى كاشحٌ فعلى
فقالت وأرْخَتْ جانب الستر إنما ... معى فتكلَّم غير ذى رِقبةٍ أهلى
فقلت لها : ما بى لهم من ترقُّب ... ولكنَّ سِرِّى ليس يحملهُ مثلى
فلما اقتصرنا دونهنَّ حديثَنا ... وهنَّ طبيباتٌ بحاجة ذى الشَّكلِ [2]
عرفن الذى تَهْوَى فقُلْنَ أنُذنى لنا ... نطُفْ ساعةً فى بَرْدِ ليلٍ وفى سَهْلِ
فقالت : فلا تلبثْنَ . قُلْنَ : تحدَّثى ... أتيناكِ . وانْسَبْنَ انسياب مَهَا الرملِ
فقمن وقد أفهمن ذا اللبِّ أنما ... أتين الذى يأتين من ذاك من أَجْلِى

وقد تحوى القصيدة قصة مكتملة التركيب الفنى من موضوع وحوادث مسلسلة تؤدى إلى الخاتمة الطبيعية المحبوكة بعد عرض للأحداث ووصف للمشاعر ومفاجآت تأخذ باللب .

---

(١) موضع رمى الجمار .
(٢) دل المرأة وغزلها .

ومن أمثلة هذا القصص ما يروى من أنه « كان يهوى امرأة يقال لها أسماء فكان الرسول يختلف بينهما زمناً وهو لا يقدر عليها ثم وعدته أن تزوره فتأهب لذلك وانتظرها فأبطأت عنه حتى غلبه النوم وكانت عنده جارية له تخدمه فلم تلبث أسماء أن جاءت ومعها جارية لها فوقفت حجرة[1] وأمرت الجارية أن تضرب الباب فلم يستيقظ ، فقالت لها : تطلعى فانظرى ما الخبر ؟ فقالت لها هو مضطجع و إلى جنبه امرأة فخلفت لا تزوره حولا فبعث إليها امرأة كانت تختلف بينه و بين معارفه وكانت جزلة[2] من النساء فصدقتها عن قصته وحلفت لها أنه لم يكن عنده إلا جاريته فرضيت » . وفى ذلك يقول :

طالَ لَيْلِى وتعنّانى الطَّرَبْ ... واعترانى طولُ هَمٍّ ووَصَبْ
أَرْسَلت أسماء فى مَعْتَبَةٍ ... عَتَبَتْها وهى أَحْلَى مَنْ عَتَبْ
أَنْ أَتَى منها رسولٌ مُوْهِناً[3] ... وجد الحىَّ نياماً فانقلَبْ
ضَرَبَ البابَ فلم يشعر به ... أحدٌ يفتح باباً إذ ضرَبْ
قال : أيقاظٌ ولكن حاجةٌ ... عَرَضَتْ تُكْتَمُ هنّا فاحتجبْ
ولَعَمْداً رَدَّنِى فاجتهدتْ ... بيمين حَلْفَةً عند الغَضَبْ
يشهد الرحمنُ لا يجمعُنا ... سقفُ بيتٍ رَجَباً بعد رَجَبْ
قلتُ حِلاًّ[4] فاقبلى مَعذرتى ... ما كذا يجزى محبٌّ مَنْ أحب
إن كفّى لك رهنٌ بالرضا ... فاقبلى ياهند ، قالت : قد وَجَبْ

ونختتم حديثنا بهذه القصة يرويها عمر عن نفسه وفيها تصوير لطيف لروح اللهو والمرح التى كانت سائدة بين شباب عصره لاسيما أهل الجاه والشرف منهم نساء ورجالا وفيها يقول : « بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتانى خالد الخريت

---

(١) ناحية .
(٢) العاقلة .
(٣) الموهن : نحو من نصف الليل .
(٤) استثنى فى حلفك .

فقال لى يا أبا الخطاب مرت بى أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا لم ير مثلهن فى بدو ولا حضر فيهن هند بنت الحارث المرية فهل لك أن تأتيهن متنكرا فتسمع من حديثهن وتتمتع بالنظر إليهن ولا يعلمن من أنت فقلت له : ويحك ! وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال : تلبس لبسة أعرابى ثم تجلس على قعود ثم ائتهن فسلم عليهن فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن . ففعلت ما قال وجلست على قعود ثم أتيتهن فسلمت عليهن ثم وقفت بقربهن ، فسألنى أن أنشدهن وأحدثهن فأنشدتهن لكثير وجميل والأحوص ونصيب وغيرهم . فقلن لى : ويحك يا أعرابى ما أملحك وأظرفك لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هذا ، فإذا أمسيت انصرفت فى حفظ الله . فأنخت بعيرى ، ثم تحدثت معهن وأنشدتهن ، فسررن بى وجذلن بقربى وأعجبهن حديثى . . قال : ثم إنهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الإعرابى ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر ! فمدت هند يدها فانتزعت عمامتى فألقتها عن رأسى ثم قالت لى : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى . قال عمر : ثم أخذنا فى الحديث وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت » . وإليكم بعض ما قال من شعر فى هذه الحادثة :

أَلم تسأَلِ الأَطلالَ والمتربَّعا ... ببَطْنِ حُلَيَّاتٍ دَوَارِسَ بَلْقَعَا ؟

إلى السَّفْح من وادى المغمَّس بُدِّلت ... مَعَالِمُهُ وبلاً ونكباء زَعْزَعَا

لهندٍ وأترابٍ لهنـدٍ إذِ الهوى ... جميعٌ وإذْ لم نَخْشَ أَنْ يتصدَّعا

وإذْ نَحْنُ مثل الماء كان مِزاجُه ... كما صفّق[1] الساقى الرحيقَ المُشَعْشَعَا

وإذْ لا نُطِيعُ الكاشحين ولا نرى ... لواشٍ لدينا يطلب الصَّرْمَ موضِعَا

فلما تواقَفْنا وسلّمتُ أشرقَتْ ... وجوهٌ زَهَاهَا الْحُسْنُ أَن تتقنَّعا

---

(١) مزج .

تبالَهْنَ بالعِرفانِ لمَّا عَرَفْنَنى وقُلْنَ أمرؤٌ : باغٍ أكَلَّ وأوضعا
وقرَّبْنَ أسبابَ الهوى لمتيَّمٍ يقيس ذراعاً كلما قِسْنَ إصْبَعا

ولقد كانت هند هذه مصدر وَحْيٍ لعُمر فى كثير من أعماله لطول علاقته بها ، وشدة ما عانى فى حبها ؛ حتى إنه تفلسف فى حبها وقال فيها شعراً جرى مجرى الأمثال ، كقوله :

حَسَدًا حُمِّلْتُهُ مِنْ أجلها وقديماً كان فى الناس الحَسَدْ

أو ذهب مذهب الحِكَم كقوله :

إنْ جَفَتْنِى اليوم هِنْدٌ بعـــد وُدٍّ واقترابِ
فسبيل الناس طُـــرًّا لفنـــاء وذهـــابِ

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى لو أُبصره الواشى لقرّت بلابلُه
بلا وبألّا أستطيع وبالمُنى وبالأمل المرجوِّ قد خاب آمِلُهْ
وبالنظرة العَجْلَى إذ الحول ينقضى أواخره لا نلتقى وأوائلُهْ

هكذا عرف الحب جميل بن مَعْمَر إمام الشعراء العُذريين الذين ترسّم جميل خطاهم فى حياته . وعذرة التى يُنسب إليها هذا اللون من الحب قبيلة كانت لها أعمال مجيدة فى أيام العرب ، وكان رجالها من أفصح الناس[1] ، واشتهر عشّاقها بالموت فى سبيل حبيباتهم . وقد قال أحدهم يصف قومه : « فى نسائنا صباحة وفى فتياننا عفة[2] » .

فكان هؤلاء الفتيان ضحايا لتلك الصباحة التى مزّقت أكبادهم ، وبددت أحلامهم ، وأفنت من شباب القبيلة العدد الكبير .

أما هؤلاء الشعراء العذريون[3] فقد نشئوا فى صدر الإسلام الأول وقت توالى الفتوحات وكثرة الخيرات وأموال الفىء ، لكنهم ربوا فى البوادى وعزفوا عما كان زملاؤهم الشعراء غارقين فيه من فنون المدح والهجاء واللهو والمجون ، ونزهوا شعرهم عن تلك الفنون الرخيصة التى يستجدى بها الشعراء الرِّفد والصلات .

وبينما كان ابن أبى ربيعة سادراً فى غيّه يطلع على الناس كل يوم بحب جديد ، كان ابن معمر عاكفاً على حبه يقدس محبوبته ويتصوف بأوراد ذكرها ؛ حتى إذا ما وافاه أجله عام ٨٢ هـ (٧٠١ م) فى مصر التى لجأ إليها يطلب العون من واليها

---

(١) الحب العذرى لموسى خليل .
(٢) مصارع العشاق .
(٣) هم جميل وقيس بن ذريح وعروة بن حزام وقيس بن الملوح .

عبد العزيز بن مروان الذى منحه الحماية وأعطاه بيتاً لم يطل به المقام فيه . . .
صرخ قائلا :

صـــدع النعىّ وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول

و يحمل الرجل قميصه إلى بُثَيْنَةَ بالحجاز ليخبرها وصيته التى لم تزد على أن اسمها كان آخر ما هتف به عند موته ، فتلطم وجهها وهى تقول :

و إن سلوّى عن جميلٍ لساعةٌ من الدهر لا حانت ولا حان حينُها
سواء علينا يا جميل بن مَعْمَرٍ إذا متّ بأساء الحياة ولِينُها

ولقد استعدّ جميل لرسالته فى عالم الشعر « فكان راوية هُدْبة بن خَشْرم ، وكان هدبة شاعراً راوية للحُطَيئة ، وكان الحطيئة شاعراً راوية لزُهَير[1] » أى أنه تخرّج فى مدرسة شعرية مشهورة التاريخ فى قوة الأسلوب والحرص على المعانى إلى جانب استعداد فطرى من مشاعر رقيقة ، ونفس حساسة ، ووجدان مرهف ، وحب قضى دهره فى الترنم بمزاميره مما غلب الموسيقى على شعره .

و إنه لصادقُ الحب لبثينة ، لا يلتفت إلى أحد سواها ، وهو يقسم لها بذلك قائلا :

حلفتُ لـكيما تعلمينى صادقاً وللصدقُ خيرٌ فى الأمور وأنجحُ
لرُؤيةُ يومٍ واحدٍ من بثينةٍ ألذُّ من الدنيا لدىّ وأَملحُ

بل يعرض عمن سواها ، وكنّ كثيرات حوله لِمَا كان يتمتع به من جمال الخلقة وقوة الشـكيمة والشجاعة والفروسية ، لـكن كل مظاهر القوة كانت تتحول إلى رقة بالغة وعذوبة محببة ، وهو يشرح لبثينة حبه وما يتحمله فى سبيله ، وما يقاومه من إغراء ، وما يفعله من أجلها من مغاضبة الناس . . كرّ ذلك فى شعر بالغ الروعة :

ولباطلٌ ممن أحب حديثـــه أشهى إلىّ من البغيض الباذلِ

---

(١) الأغانى .

صادت فؤادى يا بثين حبالكم ... يوم الحَجون وأخطأتك حبائلى
منّيتنى فلويتِ ما منّيتنى ... وجعلت عاجلَ ما وعدتِ كآجلِ
وتثاقلت لما رأت كَلَفى بها ... أحببْ إلىّ بذاك من متثاقلِ
وأطعتِ فىّ عواذلاً فهجرتنى ... وعصيتُ فيك وقد جهدن عواذلى
حاولننى لأَبُتّ حبلَ وصالكم ... منى واست وإنْ جهدن بفاعلِ
فرددتُهُنّ وقد سَعَيْنَ بهجركم ... لما سَعَيْنَ له بأَفْوَقَ ناصلِ
يعضَضْنَ من غيظٍ علىّ أناملاً ... ووددتُ لو يعضضن صمّ جنادلِ
ويقلن إنك يا بثين بخيلةٌ ... نفسى فداؤك من ضنينٍ باخلِ

تأمل معى هذه السلاسة فى اللفظ ، وهذه الرقة فى التعبير ، وهذه البساطة فى الحديث المرسل على الفطرة الربانية دون تعقيد أو تصنع .

إن هذه المزايا الفريدة إلى جانب صدق العاطفة الذى يلهب القصد بمشاعره وضع جميلا فى مقدمة الشعراء الغزليين . . . استمع إليه يتحدث عن هواه الذى يكاد أن يزهقه :

إنى لأحفظ غيبكم ويسرّنى ... إذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لك مُرْسَلاً ... أو نلتقى فيه علىّ كأشهُرِ
يا ليتنى ألقى المنيةَ بغتةً ... إن كان يوم لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلداً عن ذكركم ... فيفيق بعض صبابتى وتفكرى
لو قد تُجِنُّ كما أُجِنُّ من الهوى ... لعذرتَ أو لظلمتَ إنْ لم تعذرِ
لا تحسبى أنى هجرتك طائعاً ... حَدَثٌ لعمرُكِ رائعٌ إن تُهْجَرى
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمتْ ... يتبع صداىَ صداك بين الأقبرِ

لكنه رغم كل هذا الإخلاص والصدق مضطهد لا تستقرّ به الأرض ، مهدر

دمه ، وهو يختلى إلى نفسه فى مخابئه يتأمل قوة الدنيا ، و يتحدث فى دهشة الأطفال و براءتهم عما أصابته به :

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادى القُرى ؟ إنى إذنْ لسعيدُ
وهـل أَلقَيَنْ فرداً بثينةَ مرَّةً ... تجود لنا من ودّها ونجودُ ؟
علقتُ الهوى منها وليداً فلم يزل ... إلى اليوم ينمى حبها و يزيدُ
وأفنيتُ عمرى بانتظارىَ وعدها ... وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئت طالباً ... ولا حبها فيما يبيدُ يبيـــدُ

وقد غنى من شعر جميل تسعةوعشرون صوتاً ، ولهذه الإشارة مدلول فهى تشهد لشعره بالموسيقية وتبين كيف كانت أشعاره من أفراح الحياة فى تلك العهود. بينما كان هو يعانى من حب صاحبته بثينة التى لقيها فى يوم من أيام الأعياد فهو يها ، لـكن شاءت الظروف أن تقترن بسواه ، فلم يزده الأمر إلا فتنة وجنوناً بها ؛ حتى صدر أمر السلطان بإهدار دمه ، فسافر إلى اليمن مرة ، و إلى الشام مرة ، وهو دائماً محل سخط قومه وقومها ؛ فهم معاتبوه ولائموه على هيامه بامرأة مبذولة لرجل يملك من أمرها كل شىء ؛ ومن الذل والمهانة للرجل الحر أن يخضع لمخلوقة تعيش فى كنف غيره . وكان هو يعلم سوء ما صار إليه ، لـكنه لا يملك من أمر قلبه شيئاً ؛ ومن منا يملك من ذلك شيئا ؟ ولقد تعذّب جميل من أجل ذلك القلب الصادق الصبابة حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت سافر إلى مصر وهو مشفق من فراق بثينة . وكأنى بقلبه قد أبصر المصير المقضى بعين بصيرته فهو فى هلع من الموت بعيداً عنها . . إن ما يتمناه بعد كل هذا الحب أن يسعد وتقرّ روحه بمجاورة قبرها :

فسوف يُرَى منها صدودٌ ولم تـكن ... بنفسى من أهل الخيانة والغدر
أعوذ بك اللهمّ إن تشحط النوى ... بثَيْنَة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجورٌ إذا ما متُّ بينى و بينها ... فيا حبّذا موتى إذا جاوَرَتْ قبرى

لقد شغفت نفسى بثينَ بذكركم كما شغف المخمور يا بَثْنَ بالخَمْرِ

ولم تخل قصة جميل من آلام أخرى فهى قد أحبَّت رجلا آخر اسمه حُجْنَة الهلالى ، فحلَّ بينهما الجفاء أياماً كانت من أشد الأيام هولاً على جميل ، وقد مضى ذلك الهوى الطارئ سريعاً ، وعادت بثينة إلى هواها الفرد . ويحكى جميل عن هذا الفراق :

لقد خِفْتُ أن يغتالنى الموتُ بغتةً وفى النفس حاجاتٌ إليك كما هِيَا
وإنى لتثنينى الحفيظة كلَّما لقيتك يوماً أن أَبُثَّكِ ما بِيَا
ألم تَعْلَمِى يا عذبة الريقِ أننى أظلُّ إذا لم أَسْقَ ريقَكِ صاديا

إنه لتعبيرٌ ساذج لطيف عن شدة تعلُّقه ببثينة وصدق الصبابة والعشق الذى سلَّم به جميع النقاد القدماء لجميل ، وإنه ليعبر عن هذا الوجد الذى يجده فى قصيدة أخرى وعن قصور حيلته إزاءه وضعفه ، وهو الذى لم يعبأ بالقتل ولا بالتهديد ، وهو الذى اشتهر بالقوة والشجاعة والإقدام فى المعارك . . . إنه يبكى من حبه :

لقد فرح الواشون أنْ صَرَمتْ حبلى بثينةُ أو أبدت لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون : مهلاً يا جميل ! وإننى لأُقسم مالى عن بثينة من مهلِ
أحلماً فقبل اليوم كان أوانه أم أخشى فقبل اليوم هددت بالقتل
إذا ما تراجَعْنا الذى كان بيننـــا جَرَى الدمع من عينىَّ بثينة بالكحلِ
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابةً إلى إلْفِهِ واستعجلت عبرةً قبلى
فلو تركت عقلى معى ما طلبتُها ولـكن طِلَابيها لِمَا فات من عقلى
فياويح نفسى حسب نفسى الذى بها وياويحَ أهلى ما أصيب به أهلى
خليـلىَّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتلِهِ قَبْـلِى ؟

وما كان الحب لدى جميل عارضاً ينقضى ، بل كان غاية فى ذاته ، بل محور حياته التى فرغ فيها للحب بعيداً عما شغل به معاصروه من الشعراء كابن أبى ربيعة الذى كان يتخذ من الحب وسيلة لإزجاء الفراغ أو للمباهاة أو اللهو .

إن فراغ جميل و إخوانه من الشعراء العذريين للحب لم يكن مضيعة بل كان كسباً لهم وللدنيا ، فهم قد خلدوا بأجمل أشعار الحب ، وخلفوا للدنيا واحات من الشعر والعاطفة السامية أقدس العواطف البشرية طرًّا . . وهل أبلغ على جدية هذه المشاعر من تخيل جميل أن الحب نوع من أنواع الجهاد ، وأن قتيل الحب شهيد لا يقل أجراً عن شهيد الجهاد فى سبيل الله :

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ وأىّ جهادٍ غيرهن أريدُ
لكل حديث عندهنّ بشاشةٌ وكل قتيل بينهنّ شهيدُ

وهو يرى الحب نوعاً من العبادة والتصوف يحمله على السفر أياماً إليها بدون أن يتذوق زاداً من طعام ، بل كان زاده الحب وروح الحبيب التى تتمثل له فى كل لحظة من لحظات الحياة فهل إذا قال جميل بعد ذلك :

ذكرت مُقامى ليلة البان قابضاً على كف حوراء المدامع كالبدرِ
فكدتُ ولم أملك إليها صبابةً أهيم ، وفاض الدمع منى على النحرِ
فياليت شعرى هل أبيتنّ ليلة كليلتنا حتى نرى ساطع الفجرِ ؟
تجود علينا بالحديث وتارةً تجود علينا بالرُّضاب من الثغرِ

يدعونا هذا الشعر إلى الشك فى عذرية جميل ؟ إن جميلا بَشَر ، ولو أنه لم يذكر حبيبته ، ويتمنى أن تكون له كما يتمنى الرجل المرأة لخرج من نطاق البشرية ؛ لكن يكفى جميلا فخراً وشرفاً أنه جاهد حيوانيته وغرائزه وحافظ على حبيبته وطهّر حبه ، وكابد فى هذه السبيل ما أورده موارد الهلاك .

لها فى سواد القلب بالحب مَيْعَةٌ هى الموت أو كادت على الموت تُشرفُ
وما ذكرتكِ النفسُ يا بَثْنَ مرةً من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ
وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانة وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يذرفُ
وما استطرفت عينى حديثاً لخُلّةٍ أسرُّ به إلا حديثك أطرفُ

وما زال يسائلنا عن سر هذه الآلام :

ألا أيها القوام ويحكم هبُّوا نسائلكم : هل يقتل الرجلَ الحبُّ؟

كثير

نشأ أبو صخر كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود فى العصر الأموى ، فكان آخر راوية بين الشعراء ، وكان راوية لجميل بن مَعْمر فاقتفى أثره فى الشعر العذرى وفى ترسم منهج مدرسته الشعرية التى عنيت بقوة الأسلوب والحرص على المعانى وحمل مشعل المدرسة من بعد جميل حتى وافاه أجله عام ١٠٥ هـ فى ولاية يزيد ابن عبد الملك .

وكان هو وأستاذه يتنازعان زعامة الشعر فى عصرهما ، لكنهما كانا يرعيان حق الإخاء ، ويثنى كلٌّ منهما على صاحبه ؛ فقد جاء فى الأغانى أنهما التقيا فتذاكرا النسيب فقال كثيِّر : يا جميل أترى بثينة لم تسمع بقولك :

يقيكِ جَميـــلٌ كلَّ سوء أَمَا له ... لديكِ حديثٌ أو إليك رسولُ ؟
وقد قلتُ فى حبى لكم وصبابتى ... محاسنَ شعرٍ ذكرهنَّ يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلِّمى ... هُبوبَ الصَّبا يا بَثْنَ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالُكِ لحظةً ... ولا زال عنها والخيالُ يزولُ

فقال جميل : أترى عزَّة يا كثيِّر لم تسمع بقولك :

يقول العِدَا يا عَزَّ قد حال دونكم ... شجاعٌ على ظهر الطريق مصمِّمُ
فقلت لها : والله لو كان دونكم ... جهنمُ ما راعت فؤادى جهنمُ
وكيف يروع القلبَ يا عَزَّ رائعٌ ... ووجهك فى الظلماء للسَّفْرِ مَعْلَمُ
ما ظلمتكِ النفس يا عَزَّ فى الهوى ... فلا تَنقِمى حُبى فما فيه منقمُ

فبكيا قطعة من الليل ثم انصرفا .

ويكاد يُجمع الرواة على أن كثيِّراً أشعر الناس فى العصر الأموى ، ويذكر أنه قال لعبد الملك : كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر .

وقد امتاز شعره بالصياغة الجميلة التى يتأنق فيها صاحبها ويزيد فى صقلها حتى يصل به الأمر أحياناً إلى التزام مالا يلزم ، كقصيدته التى يقول فيها :

تمنيتها حتى إذا ما رأيتها ... رأيتُ المنايا شُرَّعاً قد أَظَلَّتِ
وما أنا بالداعى لعَزَّة بالجَوَى ... ولا شامت إنْ نَعْل عزَّة زلَّتِ
فلا يحسب الواشون أن صبابتى ... بعزَّة كانت غمرةً فتجلَّتِ

كما أثر فى نفس كثيِّر ، وبالتالى فى شعره ، ما اشتهر به من القصر والعوَر مما لم يجعله أهلا للمصاولات الجثمانية ولا المنافسات الغرامية لا سيما فى عهد جميل وابن أبى ربيعة وغيرهما ممن اشتهروا بصباحة الوجوه وجمال الأجسام فلم يكن له بد من اعتناق المبدأ القائل بأفضلية الروح على الجسد ، وبأن الأخلاق هى ما يزين الرجال لا الأجسام :

ترى الرجل النحيف فتزدريهِ ... وفى أثوابه أسد هَصُورُ
ويعجبك الطريرُ فتبْتَليهِ ... فيخلفُ ظنّك الرجلُ الطريرُ
بُغاثُ الطير أطولها رقاباً ... ولم تطل البُزَاةُ ولا الصقورُ
خشاش الطير أكثرها فراخاً ... وأُمُّ الصقر مقْلاتٌ نَزُورُ
ضعاف الأُسد أكثرها زئيراً ... وأصرمها اللواتى لا تَزِير
وقد عَظُم البعيرُ بغير لُبٍّ ... فلم يستغن بالعظم البعيرُ
ينوِّخُ ثم يضرب بالهراوى ... فلا عرفٌ لديه ولا نكيرُ
يقوِّده الصبىُّ بكل أرض ... وينحره على الترْبِ الصغيرُ
فما عظم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم كرم وخيرُ

بل لعل كثيِّراً قد غالَى فى التشيع ولم يخف مشاعره هذه حتى بين يدى خلفاء بنى أمية ، وهو المذهب المنهزم فى عصره ليعوّض شعوره بالنقص من هذه الناحية الخلقية التى كثيراً ما جعلته موضع التندر ، و يظهر للناس مقدار قوّته وجبروته .

أما فيما عدا هذه الحالة النفسية الخاصة فقد كانت روح الفطرة هى الغالبة على شعره الذى استوحى فيه أبسط المعانى وأجراه مجرى الكلام المرسل . . استمع إليه فى هذا العتاب الرقيق فسترى صديقاً يتحدث إلى صديقه ونفساً متألمة تشكو إلى نجيها وصفىّ روحها فى غير تكلف ولا تصنع :

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم ... بليلى ولا راسلتُهُمْ برسيلِ[1]
فلا تعجَلى يا لَيْل أن تتفهمى ... بنُصح أتى الواشون أم بخبولِ[2]
فإن طبت نفساً بالعطاء فأجزلى ... وخير العطا يالي كلّ جزيلِ
و إن تبذلى لى منك يوماً مودة ... فقِدْمًا تخذتُ القرض عند بذولِ
و إن تبخلى يا ليل عنى فإننى ... موكّلة نفسى بكل بخيلِ

وهو يلتزم الهدوء لأن الثورة لا تجدى أمثاله من الأقزام الذين لا يملكون من القوة ما يغتصبون به حقوقهم وهؤلاء ليس أمامهم إلا الاستسلام لأقدارهم :

ندمتُ على ما فاتنى يوم بِنْتُم ... فيا حَسرتَا ألا يَرَيْنَ عَويلى
أقيمى فإن الغَور يا عزّ بعدكم ... إلىّ إذا ما بِنْتِ غير جميل
كفى حَزَناً للعين أن ردّ طرفها ... لعزّة عير أذّنت برحيلِ
توليت محزوناً وقلت لصاحبى : ... أقاتلتى ليلى بغير قتيل ؟

ولا شك أن هذا الحرمان وذاك العذاب الذى كابده كثيِّر كانا من أسباب إبداعه فى الشعر وتفوُّقه فى النسيب لما يهيجان من مشاعر الوجد ولواعج الشوق ولوعة الحرمان .

---

(١) رسالة . (٢) فساد .

ولقد امتاز كثيّر فى شعره بإجادة الوصف والتصوير فاستمع إليه يصف انصراف الحجيج عن منى وقد اختلط الحابل بالنابل وانشغل كل فرد بنفسه وشغل هو بعزّة :

ولما قَضَيْنا من مِنًى كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدَّت على حُدْب المهارى رحالنا ولا يعلم الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطحُ

إنها صورة حية للموقف بكل ما فيه أبدعها ذكاء كثيّر ومصورته العجيبة :

ولقد مدح كثيّر الأمراء ونال صِلاتهم ، وقد شذ بذلك عن الشعراء المذربين الذين نزّهوا شعرهم عن هذا الفن من فنون الشعر . ولعله كان له مندوحة من إقامته فى الحضر كثيراً مع ما تتطلبه هذه الإقامة من تكاليف ، ولم يُعرف عنه أنه كان ذا ثراء .

واستطاع كثيِّر أن يظفر بالحب ، وأن يسعد بهذه العاطفة التى خاف أن تفلته فيكتب لنا شعراً فى الذروة من النسيب . ولقد لمس صدق حب عزّة بنت جُمَيل له عند ما علم بخروجها إلى مصر لتلقاه فجلس يرقب تلك السحابة الكريمة التى ستحمل إليه الخير والحياة :

لعمرى لئن كان الفؤاد من الهوى بغى سقماً إنى إذن لسقيمُ
فإما ترينى اليوم أبدى جلادة فإنى لعمرى تحت ذاك كليمُ
ولست برائى نحو مصر سحابةً وإن بعدتْ إلا قعدتُ أشيمُ

وقد كان زوجها يرغمها على شتمه ؛ فتبكى ؛ وفى ذلك يقول :

يكلّفها الغَيْرَانُ شتمى وما بهـا هَوَانى ولـكن للمليك استذلّتِ

فهل بعد ذلك يستغرب أن يخلص لها الحب ، ويتفانى فى إخلاصه ويقول لمن لامه فى حبه وقصره شعره عليها : لقد سار بها شعرى ، وطار بها ذكرى ، وقرب بها من الخلفاء مجلسى ، وإنها لـكما قلت فيها :

فأقسمت لا أنساك ما عشت ليلة وإن شحطت دارٌ وشطَّ مزارها
وإنى لأسمو بالوصال إلى التى يكون شفاءً ذكرها وازديارُها
من الخفِرَات البيضِ لم تَرَ شِقْوَة وفى الحَسَب المحضِ الرفيع نِجَارُها

ويتفجع لفراقها فيرى كل آماله تنهار وتتبدد كما تبدد أهل سبأ بعد انهيار سدّ مأرب لـكنه مع ذلك حافظٌ لعهدها :

أيادى سَبَا يا عزّ ما كنت بعدكم فلم يحل للعينين بعدك منظرُ
تغيَّر جسمى والخليقة كالذى عبدتُ ولم يخبر بسرِّك مخبرُ

إنه لا يرى فى الوجود سواها وأصبحت كل حياته من أجلها ؛ حتى المجد لا يرومه ولا يسعى له إلا ليحمد لدى عزة ، ويرى لـكل الناس أشغالهم ، وحب عزة شاغله ، وكيف لا يشغله إذا كانت :

من الخَفِرات البيض ودَّ جليسُها إذا ما انقضتْ أحدوثة لو تعيدُها

إنه حب لا محيد عنه ولا مهرب . . . لقد استعبدت فؤاده وملـكته فلن يصرفه عنها شىء ولو كان كرهها له .

وكيف يودُّ القلب من لا يودُّه ؟ بَلَى .. قد تريد النفس من لا يريدُها

ذلك لأنه لا يستطيع نسيانها لأنها ملأت آفاق الدنيا فى ناظريه :

أريد لأنسى ذكرها فـكأنما تمثّلُ لى لَيْلَى بكل سبيلِ

لقد لقى كثيرٌ فى هذا الحب الـكثير من الأهوال والآلام ، وخاصم الـكثيرين ، وتعرّض للهوان ، وحاول جاهداً أن يعزّ عزّة فى جميع حالاته ، وأن يحتمل كل هذه الآلام فى صبر من أجلها لـكن قلبه كان يصرخ مستنجداً بين جنبيه فتنساب مشاعره فى شعر بالغ الرقة يثير الشفقة و يستدر الدموع .

أمنقطعٌ يا عزّ ما كان بيننا وشاجَرنى يا عز فيكِ الشواجرُ
إذا قيل هذا بيت عزّة قادنى إليه الهوى واستعجلتنى البوادرُ

أصدُّ وبى مثل الجنون لـكى يرى رواة الخنـا إنى لبيتـك هاجر
ألا ليت حظّى منك يا عزّ إننى إذا بِذْتِ باع الصبرَ لى منك تاجرُ

وكان كثيِّر يحترم العفة فى الحب ، ويقدس الجمال فى عزة تقديساً يقرب إلى العبادة .

نظرت إليها نظرة ما يسرُّنى بها حمر أنعام البـلاد وسودُها

بل إن حبه هو العبادة نفسها ، وحديث عزّة عنده من نفحات السماء :

رُهبان مَدْيَنَ والذين عبدتهم يبكون من حَذَر العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خرُّوا لعزّة رُكَّعاً وسُجودَا

إن كثيِّراً كان متصوفاً يتخذ من حب عزة فَلَـكاً يتعبد فيـه ، ومن إشعاره أوراداً لا يمل الزمان ترادها ؛ حتى آمن بقدرة الجمال على بعث الموتى حين قال :

الله يعـلم لو أردتُ زيادةً فى حب عزّة ما وجدتُ مَزيدَا
والميتُ ينشر إن تمس عظامه مسًّا ويخـلد أن يراك خـلودا

وتمضى القصة فتذكر أن كثيِّرا وعزّة تغاضَبا فافترقا ، وعاد كثيِّر إلى المدينة ؛ لـكن المقام لم يطب له بعيداً عنها فرجع إلى مصر ، لـكنه بلغها والناس ينصرفون من جنازة عزّة فأتى قبرها ، وأناخ راحلته عنده ، ومكث ساعة ثم رحـل وهو ينشد :

أقول ونضوى واقف عند قبرها عليك سـلام الله والعين تسفحُ
وقد كنت أبكى من فراقك حيَّة فأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزَحُ

بشـــار

قد عشت بين النَّدْمان والراح والمِزْ
هِرِ فى ظلِّ مجلسٍ حَسَنِ

هكذا وصف أبو مُعَاذ بشّار بن بُرْد حياته ، وهكذا عاش سنيه السبعين حتى مات عام ١٦٧ هـ متأثراً ، كما قيل ، بالضرب الذى ضربه السياط حين سُمع يؤذِّن وهو سكران فى غير وقت الأذان .

وقد وصفه الناس بأنه « أعمى ودميم ومضطهد ومنجوس ودسّاس ومشاكس وسليط وفاجر ومتشكك وممقوت وكاره للبشر » . وقد يكون بهذا الوصف بعض المبالغة و بعض الخطأ لأن بشّاراً لم يخرج عن كونه نتاج بيئته وهو قد نشأ فى مستهل عصر المدنية العبّاسية حينما بدأت تظهر إلى الوجود الفِرَق الإسلامية والزندقة فى الإسلام ، وكانت الآراء تتغير كل يوم تغـير الأزياء . وكان بشار يغشى يوماً مجالس المعتزلة ليسمع آراءهم ، فإذا ما أعجبتـه ذَكرها فى شعره ؛ وفى يوم آخر ينظر فى آراء الزنادقة ، فإذا ما راقته تحدَّث بها فى سَمَره . وهو فى هذا وذاك لا يأخذ الأمر مأخذ الجد ، بل هو يسلك نفسه فى عداد الظرفاء من الشعراء فيقول مثلا :

إبليس أكرم من أبيكم آدمٍ فتبيَّنـوا يا معشر الأشرارِ
النـار عنصره ، وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يسمو سموَّ النـارِ

ولا يخلو شعره من آراء فى الجبر وغـيره مما شاع فى عصره ، ذلك العصر الذى أوغل فى الترف وكثر فيه المُجّان ومجالس اللهو والمجون ، إلى جانب أنه نشأ فى بيت أبعد ما يكون عن الوقار . فأمه قد تزوجت عبدها بُرد ، ذلك المولى الفارسى الذى كان يضرب بشّاراً ضرباً مبرحاً لهجوه الناس « فـكانت تقول له أمه : لِمَ تضرب

هذا الغلام الضرير ؟ أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ ، فسمعه بشار فطمع فيه وقال : إن هذا الذى يشكونه إليك منى هو قولى الشعر و إنى إن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى؛ فإذا شكونى إليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول ﴿ ليس على الأعمى حرَج ﴾ فلما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ذلك ، فانصرفوا وهم يقولون : فقه بُرد أغيظ لنا من شعر بشار ! » .

وكان بشار ضخم الجثة ذا طبيعة حيوانية عارمة تستمرئ اللهو والفجور ، وكان يعلم ما يتعرّض له مَنْ كان أعمى مثله فى مواضع اللهو من العبث والسخرية والتغامز، فوطّن نفسه على مواجهة كل ذلك بأن خلع رداء الحياء ، ولم يبالِ فى حياته بشرف أو دين ، ولا راقب الناس فى أمر من الأمور استهواه .

ومع ذلك فقد سلكه شعره فى مقدمة الشعراء ، بل عُدَّ من أكبر شعراء عصره لما امتاز به شعره من الرصانة والصحة ، حتى أنه وهو الأعجمىّ الأصل كان يدل على العرب بسلامة لفظه وجودة نظمه فيقول: « ومن أين يأتينى الخطأ وقد ولدت هنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ؟ وأما نساؤهم فأفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ، فمن أين إذن يأتينى الخطأ ؟ » .

و إذا كان أدباء اليوم يكثرون الحديث عن الأدب الواقعى ورسالة الأدب فى تصوير واقع الحياة فقد كان بشار منذ ألف ومائتين من السنين خير من صوّر الواقع ، انتزع صور شعره مما حوله ومن أحداث يومه . . استمع إليه فى هذه القصة :

حَسْبى وحَسْبُ الذى كلِفْتُ به ... منّى ومنه الحديثُ والنظرُ
أو عضّة فى ذراعها ولها ... فوق ذراعى مِن عضِّها أثرُ
أو لمسة دون مِرْطِها بيدى ... والبابُ قد حالَ دونه السُّتُرُ
واسترخت الكفُّ للعناق وقا ... لت إليهِ عنى والدمع منحدرُ

انهضْ فما أنت كالذى زعموا أنت وربى مُغازِلٌ أشِرُ
يا ربِّ خُذْ لى فقد ترى ضَرَعى من فاسقٍ جاء ما به سَكَرُ
أهْوَى إلى مِعْضَدِى فرضَّضه ذو قوّةٍ ما يطاق مقتدرُ
كيف بأُمِّى إذا رأت شفتى أم كيف إن شاع عنك ذا الخبرُ
قلت لها عند ذاك : يا سَكَنى لا بأس ! إنى مجرِّب خَبِرُ
قولى لها بَقّةٌ لها ظُفُرٌ إن كان فى البَقِّ ما له ظُفُرُ

ألا ترى فى هذا الشعر صورة فاضحة من ليلة ماجنة من ليالى بشار ؟ وانه لا يكتفى بوصف ما حدث بل لا بد له من السخرية والنكتة اللطيفة يختتم بها قصته عن تلك البقة ذات الظفر .

وهو يحدثنا فى قصيدة أخرى عن مباهج السهر وما تحتويه دنيا الليل من جمال وأحداث مثيرة فيقول :

عجبتْ فاطمُ مِنْ نَعْتِى لها هل يجيب النعت مكفوفُ البَصَرْ
بِنْتُ عشرٍ وثلاثٍ قسمت بين غصنٍ وكثيبٍ وقمَرْ
أذرت الدمع وقالت : ويلتى من ولوع الكف ركّاب الخَطَرْ
أمَتِى بدَّدَ هذا لُعَبى ووشاحى حَلَّه حتى انتثر
أيها النُّوَّام هُبُّوا وَيْحَكُمْ وسَلُونى اليومَ ما طَعْمُ السهرْ

لكن هذا الشاعر العابث يقف أحياناً فى طريق الحياة فيطرح العبث جانباً ، ويصطنع شيئا من الجدّ ، ويتأمل تصاريف القدر فيأتى لنا بشعر يزينه الوقار وإعمال الفكر ، والخوف من العقاب :

بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا وأن بقائى إن حييتُ قليلُ
فعش خائفاً للموت أو غيرَ خائف على كل نفس للحِمام دليلُ

حليلك ما قدمت من عمل التُّقَى وليس لأيام المنون خليلُ

بل يخيل إليّ أنه أسرف على نفسه فى الجد واصطناع الفلسفة عندما قال :

إذا كنتَ فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُهْ
فعشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه مُقارفُ ذنبٍ مرة ومُجانبُهْ
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَذَى ظمئت ، وأىُّ الناس تصفو مشاربُهْ

لـكن بشَّارًا اشتهر بالهجاء منذ نشأته ، وقد كان لأصله الفارسى ونشأته بين قوم عرب يحتقرون كل ما هو أعجمى دخلٌ كبير فى إسرافه فى السخرية من كل شىء لا سيما هذه الأصول والأنساب

تُفاخِرُ يا بنَ راعيـةٍ وَرَاعٍ بنى الأحرار حَسْبُك من خَسَارِ
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قَرَاحٍ شَرِكْتَ الـكلبَ فى وَلْغِ الإطارِ
مُقَامُك بيننا دَنَسٌ علينـا فَلَيْتَكَ غائبٌ فى حَرِّ نارِ
وفخرُك بين خنزيرٍ وكلبٍ على مثلى من الحدَثِ الـكبَارِ

وقد كان هذا المجتمع القَبَلى يقود بشارًا إلى الثورة عليه ، وتبلغ به التوبة أن يدعو الموالى جميعا إلى الثورة معه على الجنس العربى فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلالِ و بعضُهم مولى العريب فخُذْ بفضلك فاخرِ
مولاك أكرم من تميم كلّهـا أهل النعال ومن قريش المشعرِ
فارجعْ إلى مولاك غير مدافعٍ سبحان مولاك الأجلّ الأكبرِ

لـكن أغلب الهجاء فى شعر بشار لا يحمل مرارة الغل وظلمة الحقد على الناس ، بل هو أقرب إلى الفـكاهة والدعابة المضحكة التى تسلّح بها ضد الناس حتى يأمن خبثهم وتندُّرهم بعاهته .

فقد روى أن رجلا سأله عن منزل ذكره له فجعل يفهمه والرجل لا يفهم فلما

يئس منه بشّار أخذ بيده وقام يقوده إلى المنزل الذى يبتغيه وجعل ينشد فى طريقه :

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكمو قد ضلّ من كانت العميان تهديهِ

وظل يقوده حتى وصل به إلى المنزل ثم دفعه إلى داخله وقال له هذا هو المنزل يا أعمى .

كما كان بشّار يعتبر الهجاء باباً من أبواب الكسب إذ قال : « إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذاً بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعر أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر و إلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى » .

وعلى هذا الأساس كان فى كثير من هجائه لا همّ له إلا جمع العيوب والمبالغة فى الهجر والفحش حتى قلّ ما يصلح من شعره هذا للنشر أو الحفظ .

وقد قال لما مات الرشيد ودفن بطوس إلى جوار قبر الرضا :

قبران فى طُوس خير الناس كلّهم وقبر شرّهم . . . هذا من العِبَرِ
ما ينفع الرجس من قُرب الزكىّ ولا على الزكىّ بقرب الرجس من ضَرَرِ

وقال فى المعتصم :

ملوك بنى العبّاس فى الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامنٍ لهم الكُتُبُ
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كلبُ
وإنى لأُعلى كَلْبَهم عنك رتبةً لأنك ذو ذَنْبٍ وليس له ذَنْبُ

و إذا كانت العُجمة عيباً فهو يهجو به رغم أنه من أصل فارسى فيقول :

سباويه يا ابن الفارسية ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذُ ؟

وهكذا يمضى بشار فى حياته مستهتراً بكل القيم المتعارف عليها بين الناس لا يبالى بمقدساتهم ولا بعاداتهم ، و يمتد هذا الاستهتار حتى يصل إلى شعره فيسف به أحياناً إلى مثل هذا النظم :

ربابةُ ربةُ البيتِ تصبُّ الخلَّ فى الزيتِ
لها عَشْرُ دجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصوتِ

ولا يبالى إذا لم يسعفه الوحى بإتمام شعره بألفاظ ليست من العربية ، بل لا وجود لها فى اللغات كقوله :

صببت هواك على قلبـــه فضاق وأعلن ما قد كتمْ
وقالت : هويتَ فتىً راشداً كما مات عُروة غمًّا بغَمّْ
دسستُ إليها « أبا مِجْلَزٍ » فأىّ فتى إنْ أصابَ اعتزمْ
فما زلت حتى أنابت له فراح وحلّ لنا ما حَرُمْ

ولما سأله سامع : ومن هو أبو مجلز ؟ قال له : وما حاجتك إليه ؟ ألك عليه دين ؟ أتطالبه بطائلة ؟ هو رجل يتردد بينى و بين معارفى فى رسائلى .

بل إن هذا الاستهتار أو التظرف يصل إلى غزل بشّار فكأنه لم يحس بلفح الهوى ، ولا أصابته نيران الحب ؛ بل هو يحدثنا فى إحدى قصائده بشعر خفيف لاهٍ عن اضطراره إلى مقاطعة الحبيب كأمر الخليفة ، وهو لا يحس من هذه القطيعة سوى ذكرى ضاحكة ساخرة من دموع تلك الحبيبة :

يا منظراً حَسَناً رأيتُه من وجهِ جاريةٍ فدَيتُهْ
بعثتْ إلىّ تســومنى ثوبَ الشباب وقد طَوَيتُهْ
واللهِ ربِّ محمـــــــدٍ ما إن غدرتُ ولا نَوَيتُهْ
أمسكتُ عنك ، وربما عَرَض البلاء وما ابتغيتُهْ
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أَبَيتُهْ
ومخضَّبٍ رَخْصِ البنا ن بكى علىّ وما بَكَيتُهْ

ويشـــوقنى بيت الحبيـــب إذا ادّكرت ، وأين بَيْتُهْ
قام الخليفـــة دونه فصبرت عنه وما قليته

وتطغى واقعية بشار على شعره ، حتى تستحيل مادية شاملة تجسم كل شىء ، حتى ما يرى وما يسمع ، بل إنها تحيل العواطف إلى ماديات تلمس وتحس ؛ فاستمع إليه يقول :

إذا نظرت صبَّت عليك صبابةً وكادت قلوبُ العاشقين تطيرُ

وإذا وصف حديث النساء وهو مولع به قال :

وحديث كأنه قطع الرَّوْ ض وفيه الصفراء والحمراء

إن الحديث أبعد لذات بشار عن المحسوسات لـكنه لا يرتاح حتى يشبهه بكل محسوس وجميل ملموس فيقول فى موضع آخر :

ولها مَبْسِمٌ كثغر الأقاحى وحديثٌ كالوَشْيِ وَشْيِ البُرودِ

لـكن يبدو أن الهوى أقوى من سخرية بشار وله سلطان تذلُّ له النفوس وتضعف فتذهب تتلمس الأعذار ، وترجو المشاركة والعطف ، وتنطق بشاراً بمثل قوله:

يا قَوْمُ أُذْنِى لبعضِ الحىِّ عاشقةٌ والأُذْنُ تعشقُ قبـــل العين أحياناَ

قالوا : بمن لا تَرَى تَهْذِى ! فقلت لهم :

الأُذْن كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وهل حقيقة كان بشار يهذى أم هو الحب يستوى فيه الناس جميعاً مبصرهم والأعمى؟

وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلّا من القلبِ
وما الُحسنُ إلا كلُّ حسن دعا الصبا وألّف بين العشق والعاشق الصبِّ